حتى لا نصبح عالة على الحضارات الأخرى في صناعة ملابسنا وحياكتها

الملابس الشعبية مظهر حضاري مرتبط بفكر ووجدان المجتمع ، تحمل موروثات ثقافية عبر أجيال ، ولو قلبنا صفحات ماضي المملكة قبل نصف قرن ، ودرسنا نشاط المرأة داخل مجتمع المدينة ، نرى أنه بالإضافة إلى قيامها بالأعباء الأسرية المعروفة ، فإنها كانت تعتمد اعتمادًا كبيرًا على نفسها في حياكة ملابسها من الأقمشة التي كانت تتوفر في الأسواق المحلية ، والتي كانت للبلاد العربية والإسلامية باعٌ كبيرٌ في شهرة صناعة الكثير منها ، فكان كل قماش [١] ينسب إلى المدينة العربية التي تشتهر بإنتاجه ، عدا الأقمشة المطرزة التي تأتي من الهند والبلاد الشرقية بشكل عام ، أي أن المرأة في المملكة وأغلب البلاد العربية ، لم تكن تعرف ما نسميه الآن بالملابس الجاهزة ، كما عرف عن المرأة في المملكة أنها كانت تتفنن في تطريز [٢] بعض ملابسها سواء الداخلية منها أو العادية أو ملابس الأفراح ، وكل منطقة في الجزيرة العربية تشتهر بطريقة في التطريز تدل على تعدد أشكال الملابس من منطقة إلى منطقة في

---

(١) اقرأ عن شهرة بغداد بصناعة الأنسجة ومنتوجاتها وكذلك الصناعات اليدوية وتجارتها بين البلاد العربية (ص٢٢، ٢٤) ، من كتاب د/ وليد الجادر السلسلة الفنية (١٧) ، المركز الثقافي العراقي بيروت .

واقرأ عن دار النسيج وهي من المشاريع الحكومية التي تجمع بين النتاج الجماعي والفردي التي كانت في عالم العرب قبل الإسلام وخاصة في مناطق الجزيرة العربية والعراق ومصر في نفس المؤلف السابق / السلسلة الفنية رقم (٢) ، (ص١٣٣) .

(٢) ارجع إلى موضوع «التراث التقليدي لملابس النساء في نجد» ، المعيدة ليلى صالح البسام ، كلية التربية لبنات ، قسم الاقتصاد المنزلي ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

المملكة ، أما ملابس الرجل فكانت المرأة تخيط بعضها ، إلا أن بعض الرجال وبالذات الأثرياء كانوا يعتمدون على الحائكين المتخصصين في حياكة الملابس الرجالية .

الريف السعودي :

ويمكننا أن نتعرف على الواقع الذي لا زال ينبض بالحياة والحركة فيما لو تركنا أجواء المدينة وذهبنا إلى الريف العربي عامة ، أو المناطق والقرى السعودية الأخرى مثل منطقة عسير ونجران أو المنطقة الشرقية وغيرها من المناطق لوجدنا أن المرأة ما زالت تحيك كثيرًا من ملابسها ، وتتفنن في تطريزها [١] وفق تقاليد معروفة لديها تشتهر بها كل منطقة على حدة .

حياكة الصوف في البادية :

ولو اطلعنا على حياة البدو ، لوجدنا أن عملية حياكة الصوف «السدو» [٢] مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بابن البادية ، فهذه الحرفة البدوية التقليدية أتقنتها القبائل في الخليج والجزيرة العربية فمنها كان المأوى والملبس والمفروشات ، ونجد أن الحياكة هي من أهم العطاءات التقليدية الأصيلة التي عرفها ابن البادية ، وللمرأة نصيب وافر في إنتاجها .

تبدأ العملية في الإنتاج والإبداع من الخراف ، التي هي رفيقة القبائل في حلّها وترحالها وبواسطة «التغزالة» يلف الصوف و«بالمغزل» يتحول إلى خيوط ، وتلك الخيوط المختلفة الألوان يحولها أهل البدو إلى قطع محبوكة

---

(١) ارجع إلى مقالتي عن التراث الشعبي السعودي في الملابس من خلال نشاط جمعية الوفاء النسائية الخيرية ، جريدة الرياض العدد (٤٨١٤) ، تاريخ ١٩/ ٦/ ١٤٠١ ، باب حروف وأفكار ، والعدد (٥٠٩٨) ، تاريخ ١٦/ ٦/ ١٤٠٢ صفحة البيت والمجتمع .

(٢) نساء بيت السدو ، مجلة فيروز ، باب عادات وتقاليد ، العدد ٣٤ ، نوفمبر ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٣م .

منقوشة ، هي قطع السدو أما آلة «السدو» فتبقى منصوبة طوال فصل الصيف ، إما داخل بيت الشَّعر وإما قريبة منه ، تحت مظلة واقية من الشمس والحر ، وتبقى المرأة خلف تلك الآلة البدائية غارقة في العمل لا تكل ولا تمل والصناعات الصوفية عديدة ومختلفة الألوان والأشكال ، أذكر منها على سبيل المثال البساط والمفرش «والعدل» لحفظ الأرز ، والحبوب ، و«المزودة» لحفظ الملابس و«العقال» لربط الخراف .... إلخ .

وقد اعتادت المرأة البدوية أن تبتكر مفروشاتها وحاجاتها كأنما تحاول أن تلطف بعطائها من اللهب حول دارها ، وأن تخفف من شظف العيش بين الرماد في عرض الصحراء .

فالحياكة فن اشتهر به الإنسان العربي ، كما أنه يتفق مع ميول المرأة ويتناسب مع قدراتها وطبيعتها .

نظرة على التنمية :

وإذا استعرضنا نواحي التنمية وسلّطنا الضوء على التغير والتحول في مجتمعات المدينة خلال السنين الماضية ، نجد أن مناهج التعليم وتخصصاته تُعطي نوعًا من الاهتمام بهذا الموضوع وفق المناهج الحديثة ، وبمعنى آخر فإن أوان الحركة التعليمية لا تعمق الجذور ولا تصل إلى ربط الصلة بين فنوننا التراثية وحضارنا ولا جذورنا التاريخية بعطائها وإبداعها ، ويظل الأمر قاصرًا على تلبية الحاجة الفعلية في إعداد أجيالٍ تحمل الرسالة في حفظ سماتنا القومية وتلبية حاجيات المجتمع في إتقان فنونه من أجل مواكبة النهضة الحديثة بطابعنا الخاص على المستوى القومي ، وحتى لا نفقد هويتنا ، أو نكون أقل تقدمًا من البلاد الأوروبية أو البلاد الأخرى في هذه الناحية .

ونتيجة لهذا ولغيره من الأسباب ، نجد أن التجارة تعمل على إغراق الأسواق بالملابس الجاهزة المختلفة بالذات ــ النسائية منها ــ لأن الرجل استطاع بمحافظته على ثوبه الشعبي وعدم انفتاحه إلى حدٍّ ما على الموضات الغربية أن يقاوم الألبسة الأوروبية الجاهزة ، فأغلب ملابسه تُصنع محليًا سواء بعمالة سعودية أو غيرها وهي وفقًا للذوق الشعبي المتعارف عليه .

تأثير التجارة :

فالتجارة سبب من الأسباب التي لا تساعد على بروز المشكلة وظهورها بحجمها الطبيعي ، فكما يقول المثل المعروف : «الحاجة أم الاختراع» ، فما دامت الأسواق تغرق بالبضائع الأجنبية سواء الشرقية منها أو الغربية ، بالنوعيات ذات السعر الرخيص الذي يأتي من الصين وتايوان ليسد حاجة الناس ، أو من البضائع الأوروبية «التي كثيرًا ما يتحكم أصحابها بالأسعار عندما يتعود الناس عليها» فمن الملاحظ بعد هذه أن للتجارة إيجابياتها وسلبياتها ، ومن واجبنا أن ندرس الوجه الآخر منها بإمعان لأنها تعمل على تعويد المجتمعات على الاتكالية فتمنعها من استغلال طاقاتها والاحتفاظ بفنونها وإيجاد السُّبل من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي .

هذا ويمكننا الإطلاع على بلدٍ ناهض مثل اليابان وكيف استطاع أن يحمي مختلف إنتاج بلاده فنستفيد من تجربته في ذلك .

البدء من الطفولة :

إن من طبيعة الأشياء ومن الأسباب التي تؤدي إلى تعلم المرأة الحياكة وممارستها ، هو اكتشافها هوايتها في نفسها وقدرتها الذاتية على ذلك ، إلى جانب العادات في المجتمع ، وأولى محاولاتها قد تكون في صغرها عندما تبدأ في

حياكة ثوب للعبتها ، أو عندما تكبر فتقلد أمها ، فتصنع من قطعة قماش صغيرة ثوبًا لأخيها أو أختها الصغيرة ، أو عندما يقترب الوقت لأن تصبح أُمًّا لطفل مولود فتتفنن في صنع ملابسه وتضفي عليها من إبداعها وذوقها ما يجعلها محببة للنفس .

وكم يبدو الطفل جميلًا في ثوبه الذي صنعته له أخته أو أمه ، وكم يُدخل السعادة على ذويه عندما يرونه في ملابسه التي هي صورة مصغّرة عن ملابس الكبار ، فالطفل يضفي جمالًا على الثوب الذي يلبسه .

وملابس الأطفال عادة ما تكون سهلة الحياكة ، بسيطة في تفصيلها ، يمكن إنجازها بسهولة ، فتجد الفتاة لذة كبيرة ومتعة عظيمة عند أدائها ، وبعد انتهائها منها ثم رؤيتها على جسم الصغير وقد لبسها وهو يحبو أو يمشي خطواته الأولى أو يحاول أن يقلّد أباه في مشيته ، أو الكبار في تصرفاتهم وحركاتهم خاصة إذا وجدت الاستحسان والتشجيع ممن حولها .

وقد تختلف الآراء في اعتبار ذلك نعمة أم نقمة ، عندما نجد أسواقنا وقد أغرقت بملابس الأطفال من المنتجات الأجنبية ـ كما سبق وذكرت ـ سواء من البلاد الأوروبية أو البلاد الشرقية مثل تايوان والصين بشكل يبهر الأنظار في إتقان الصنعة ورخص الثمن وتنوع الأزياء واختلافها فما هو الدافع إلى أن تمسك المرأة بعد ذلك بالمقص والإبرة ما دامت تجد كل ذلك جاهزًا في الأسواق ؟ وبذلك نجد أنه قد اختفت ظاهرة وجود أكثر من فردٍ في كل أسرة يتقن فن الحياكة ، ثم نقول بعد ذلك ونتحدث عن ظاهرة الطفش والضجر من وقت الفراغ عند المرأة في الصيف وأيام السنة .

ومن الأشياء التي أخذت في زيادة هذه المشكلة ، كثرة سفر الرجال إلى أوروبا وغيرها من البلاد ، ليس من أجل دراسة مشروع تحتاج إليه بلادهم ، ولكن من أجل قضاء إجازة الصيف مع عائلاتهم وشرائهم لمثل هذه الملابس والأزياء من أوروبا ، وما المرأة إلا جزء من الرجل ، فبوعي الرجل يرتفع وعي المرأة في بلادنا والعكس صحيح .

إننا لم نَعِ أمرنا وندرسه ونخطط له بروية وأناة ، فإننا نسير في الطريق الذي يؤدي إلى اضمحلال أزيائنا الشعبية شيئًا فشيئًا ، ذلك لأن العادة منذ الصغر لابُدَّ أن تؤثر على الإنسان في الكبر .

الرجل يعتمد ثوبه الشعبي :

ومن فضل الله وتوفيق المسؤولين في الدولة أنهم اعتمدوا الأزياء الشعبية للرجل ، وهو الثوب الشعبي والغترة «الحطة» والعقال سواء في الوظائف الحكومية أو في مدارس التعليم ، ولولا ذلك لوجدنا أيضًا الأزياء الشعبية [1] للرجل أيضًا في طريقها إلى الاضمحلال والاندثار ، ولظهرت لدينا ظاهرة فوضى الأزياء عند الرجال أيضًا .

مطلوب إعادة نظر في خطة التعليم والتصنيع :

وخلاصة الأمر فإن العقل السليم لا يقر إلى أبعد الحدود استمرار اعتماد المجتمع اعتمادًا كبيرًا في حياكة ملابسه النسائية وملابس أطفاله الأوروبية ، وبمعنى آخر على اليد الغربية .

وبهذا نجد لزامًا علينا أن نسعى إلى تطوير صناعاتنا في هذا المجال والمحافظة على فنوننا ، مع الأخذ بها في طريق المعاصرة ، وذلك لكي نلحق

(١) ارجع إلى كتابنا بعنوان ثقافة الأسرة .

ركب التقدم الصناعي في مجال الاستعانة بالآلات الحديثة والتكنولوجيا العصرية مع المحافظة على فنوننا المحلية العربية والإسلامية المتعلقة به ، فعندما يصبح أمر التجارة سهلًا ، حيث تقوم الدولة بعد ذلك في حماية صناعاتها الوطنية والشعبية ، كما وتستطيع المرأة أن تلعب دورًا مهمًا في هذا المجال .

ويعني هذا أن المسؤولية الكبيرة تقع على عاتق التخطيط التعليمي سواء بالنسبة للفتى أو الفتاة ، وكذلك قصور التعليم الفني للفتاة في بلادنا بالقدر والكيفية التي تلبي احتياجات المجتمع ، ويعمل على مواصلة مسيرته الفنية التي يملكها ، علمًا بأننا نرى أن مثل هذه التخصصات قد تطورت وتقدمت في المجتمعات الأخرى ، وأصبح لها علومها الواسعة ، ومركزها الفني الذي تدعمه الدولة ، مع ارتباطها بالتقدم الآلي والتكنولوجي .

ومما يؤكد صحة القول أننا أخذنا نسمع في الآونة الأخيرة عن مشكلة ضيق استيعاب الخريجات الجامعيات في الوظائف المرتبطة في مجال التدريس أو غيرها من المجالات التي تتناسب وطبيعة المرأة وقدراتها في نفس الوقت الذي تجد قصورًا في أن تكون الخطة التعليمية من الناحية التقنية والحرفية كما فعلت الصين أو اليابان ملائمة لإعداد المرأة لحياكة ملابسها ، أو الرجل لصنع احتياجات مجتمعه .

وتبقى بعض الأسئلة التي تحتاج إلى جواب وهو أننا لماذا لا نعيد النظر في التعليم الفني للفتى والفتاة في هذا المجال ونعطيه الاهتمام الكافي ؟ ونواصله من المراحل الأولى في التعليم إلى المراحل الجامعية لكي يكون متصلًا باحتياجات المجتمع وفنونه القومية ، ولعله من الواجب أيضًا ضرورة العمل على رفع قيمة هذا النوع من التعليم من الناحية الأدبية والمادية لكي يوازي

التخصصات الأخرى التي تقبل عليها الأجيال ، ما دام المجتمع بحاجةٍ ماسةٍ له ، ويستطيع أن يقوم بالدور الكبير الذي يحافظ على سمات شخصيتنا القومية والحضارية ، ثم لماذا لا يقوم الرأسمال الأهلي بإقامة مدارس ومصانع للأقمشة والحياكة وتدعمه الدولة كما تدعم الحاجات الأساسية للمواطن ؟ كما فعلت الصين أثناء إعداد خطة التنمية في بلادها .

فالدولة تتحمل عبءًا كبيرًا في دعم الإنتاج المحلي بشكل عام ، والإنتاج الصناعي بشكل خاص ، وكان هناك أسبوع للصناعة الوطنية كل عام نستعرض من خلاله جهودنا في مجال الصناعة الوطنية ، كما أن الدولة لم تقصر في رعاية مجالات التعليم المختلفة بأنواعها .

وتبقى مسؤوليتنا في أن نجعل خطة التعليم والتصنيع مرنة وقادرة على استيعاب احتياجات المجتمع على المستوى الشعبي والقومي وأن تكون مناهجنا قادرة على نشر الوعي الفني والحسي والجمالي النابع من أصالة تراثنا وجذوره ، ثم نضع الحصن المنيع في وجه إفساد أذواقنا والعبث بفنونها وتشويهها ، ونعمل بنفس الوقت على استغلال طاقاتنا في الإنتاج والإبداع إنطلاقًا من حماستنا للتعمق في الماضي والاستلهام منه ، من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي في بلادنا ووطننا العربي عامة .

تعليق : إن من أخطاء التعليم في بلادنا أنه يركز على التعليم النظري أكثر من تركيزه على العلوم العملية والمهنية التي تحتاجها مجتمعاتنا ، حتى أن أجيالنا لا ترغب أن تكون خبيرة بناحية مهنية فأغلبهم يرغب أن يكون مديرًا أو يركض وراء المظهرية والوجاهة في المجتمع ولو على حساب ميوله ورغباته وحاجة المجتمع الحقيقية وذلك مسايرة منه لأمراض مجتمعاتنا في حب

المظهرية مثلًا علمًا بأن الرسول محمد ﷺ قبل اليد لممتهنة وأكرم صاحبها ، والغرب عمل في العلوم العملية وتخصص بها ويسمي صاحبها توكنوقراط فلماذا لا نتجه كما فعلت الصين واليابان إلى الأعمال المهنية والصناعية كما فعلت الصين أو اليابان ، إن مثل ذلك يضمن للأجيال الابتعاد عن البطالة أو يضمن لهم عيشة كريمة ، وتضمن للأجيال حب العمل اليدوي وامتهان المهن ، والمشكلة تعود أساسًا إلى السياسة التعليمية للدولة في جامعاتها ومعاهدها وأن يتم التنسيق في ذلك التعليم بين المراحل المختلفة .

وتلعب ظاهرة المودة وتوجيهاتها دورًا فعالًا في معالجة ركود المجتمع في عدم تقبل أبنائه للمهنة .

*****

obeikandl.com